مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
العدد الثالث عشر
March 2025 مارس

الغزو النورماندي الأول لسواحل الأندلس عام 230هج/844م وأثره في تحصين المدن الساحلية وتطور البحرية الأندلسية

د. جميلة محمد صالح أبو القاسم
بقسم التاريخ.. كلية التربية بالزاوية / جامعة الزاوية
Jabulgasem@zu.edu.ly

ملخص البحث:

منذ تأسيسها عام 138هـ/756م، كانت الإمارة الأموية في الأندلس عرضةً للأخطار والتهديدات القادمة من الشمال، حيث ارتكب الغزاة المعتدون جرائم ومذابح رهيبة ضد المسلمين. يستعرض هذا البحث واحدةً من أبرز هذه التهديدات، وهي الغزو النورماندي لشواطئ الأندلس الغربية عام 230هـ/844م.

تدور إشكالية البحث حول مدى تأثير هذا الغزو في تعزيز تحصينات المدن الساحلية وتقوية البحرية الأندلسية، وتكمن أهميته في سد فراغ في الدراسات الأندلسية المتعلقة بهذا الحدث الحاسم، الذي يحمل دروسًا مهمة لفهم براعة الأمير عبد الرحمن الأوسط في تحويل التهديدات إلى فرص لتعزيز قوة إمارته البحرية. وتشير نتائج البحث إلى أن النورمانديين لم يولدوا غزاة بطبعهم، بل أجبرتهم ظروف المناخ القاسية ومحدودية الموارد على هذا التحول. كما يوضح البحث تركيز الغزاة على المناطق ضعيفة التحصين واستخدامهم عنصر المفاجأة. يتكون البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة، يتناول المبحث الأول الخلفية التاريخية للغزاة، بينما يعرض المبحث الثاني تفاصيل غزوهم لشواطئ الأندلس الإسلامية ويحلل أثره في تطوير تحصينات المدن الساحلية والبحرية الأندلسية، لترصد الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الكلمات الدالة: النورماند، الأندلس، الغزو، عبد الرحمن الثاني، الاشبونة، قارس، شذونة، إشبيلية، النهب، السلب، التحصينات، البحرية.

The First Normand Invasion of the Andalusian Coast in 230 AH/844 AD And its Impact of the Invasion on Fortifying Coastal Cities and the Development of the Andalusian Navy

Dr. Jamila Mohammed Saleh Abu Al-Qasim
Department of History, Faculty of Education, Al-Zawiya / University of Al-Zawiya
Jabulgasem@zu.edu.ly

Abstract:

Since its establishment in 138 AH/756 AD, the Umayyad Emirate in Al-Andalus was exposed to dangers and threats from the north, where aggressive invaders committed terrible crimes and massacres against Muslims. This research reviews one of the most prominent of these threats, the Norman invasion of the western shores of Al-Andalus in 230 AH/844 AD. The research problem revolves around the extent of the impact of this invasion on strengthening the fortifications of coastal cities and strengthening the Andalusian navy. Its importance lies in filling a gap in Andalusian studies related to this crucial event, which carries important lessons for understanding the ingenuity of Prince Abd al-Rahman al-Awsat in transforming threats into opportunities to enhance the power of his naval emirate. The research results indicate that the Normans were not born as invaders by nature, but rather harsh climatic conditions and limited resources forced them into this transformation. The research also clarifies the invaders' focus on poorly fortified areas and their use of the element of surprise. The research consists of an introduction, two sections, and a conclusion. The first section deals with the historical background of the invaders, while the second section presents the details of their invasion of the shores of Islamic Al-Andalus and analyzes its impact on the development of the fortifications of the coastal cities and the Andalusian navy. The conclusion monitors the most important findings of the research.

Keywords: Normans, Andalusia, invasion, Abd al-Rahman II, Lisbon, Gars, Sidonia, Seville, looting, pillaging, fortifications, navy.

المقدمة:

جاء الغزو النورماندي الأول لسواحل الأندلس الشمالية الغربية عام 230هج/844م في إطار التهديدات البحرية الخارجية التي استهدفت الإمارة الأموية في عهد رابع أمرائها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، المعروف بالثاني أو بالأوسط (206-238هج/822-852م). بالرغم من الكارثة التي حلت بالمدن التي داهمها الغزاة، إلا أن هذا الحدث ساهم في فتح صفحة جديدة في تاريخ البحرية الإسلامية الأندلسية، التي شهدت تطوراً غير مسبوق عقب هذا العدوان. وهنا يبرز البحث التجارب التاريخية الناجحة في تحويل التهديدات الخارجية إلى فرص لتطوير أساليب الدفاع والمواجهة. بهذا، لا يقدم البحث معلومات تاريخية جديدة فحسب، بل يسهم أيضاً في فهم أفضل للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شكلت مسار التاريخ البحري والأمني للإمارة الأموي.

إشكالية البحث:

رغم النجاح الباهر الذي حققه أهل الأندلس في صد هذا الغزو، إلا أنه كشف عن ضعف الإمارة الأموية بحرياً أمام قراصنة البحر النورماندي، مما يثير تساؤل الإشكالية الرئيسي حول مدى تأثير هذا الغزو في تعزيز تحصينات المدن الساحلية وتقوية البحرية الأندلسية؟ وينبثق عن ذلك الأسئلة الفرعية التالية:

1- من هم النورماند، وما هو موطنهم الأصلي، وكيف كانت حياتهم قبل غزو الأندلس؟

2- هل يمكن للمرء أن يجادل في أثر العوامل الاقتصادية في تحول النورماند إلى غزاة؟

3- كيف واجه الأمير عبد الرحمن الأوسط هذا الغزو؟

4- ما أثر هذا الغزو على تطوير هذا الأمير لاستراتيجية الدفاع البحري والبري لإمارته؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في ملء فراغ واضح في الدراسات الأندلسية، الناتج عن إهمال حدث حاسم من تاريخ الأندلس الإسلامي المليء بالدروس والعبر، مما يساعد على فهم براعة عبد الرحمن الأوسط في تحويل التهديدات إلى فرص لتعزيز قوة إمارته البحرية. كما يقدم البحث معلومات لم ترد في المصادر العربية والأندلسية عن الحياة الأولى للنورماند ومجتمعاتهم البدائية وطرق معيشتهم وعقائدهم اعتماداً على مصادر أجنبية متخصصة بدراسة هذه الفترة، مما يوفر رؤية جديدة حول كيفية مساهمة

الظروف الاجتماعية وضنك العيش في تحول النورمانديين إلى غزاة. إضافة إلى ذلك، يتيح البحث استكشاف أثر الغزو النورماندي على تطوير التحصينات البحرية والمدنية في الأندلس.

أهداف البحث:

1- التعريف بالنورماند وأصولهم وموطنهم وبداية توسعهم في أوروبا.

2- عرض سياق الغزو، الذي لم تتعرض له المصادر إلا بإشارات عابرة.

3- تحليل أثر الغزو على التحصينات والإصلاحات البحرية.

4- المساهمة في تطوير هذا الفرع من الدراسات الأندلسية.

5- عرض التجارب التاريخية الناجحة لتحويل التهديدات الخارجية إلى فرص لتطوير وسائل المواجهة.

منهجية البحث

اعتمد البحث المنهج التاريخي الوصفي لتتبع الحدث والاستقصائي التحليلي لجمع المعلومات وتفكيك تفاصيلها واستخلاص النتائج المرجوة.

خطة البحث: قسم البحث الي مبحثين:

المبحث الأول: الخلفية التاريخية للغزاة

المبحث الثاني: الغزو النورماندي لمدن غرب الأندلس

المبحث الأول: الخلفية التاريخية للغزاة

أولا: الخلفية التاريخية للغزاة النورمانديين

النورماند أو الفيكنج، حسب العبادي (بدون. ت، ص 348-349)، أو المجوس كما سماهم المسلمون، وفقاً لأبن عذاري (1434هج/2013م، ج2، ص 101)، هم مجموعة عرقية تعود أصولها إلى شعوب اسكندنافيا (الدنمارك والنرويج والسويد وشواطئ ألمانيا الشمالية). كانت هذه القبائل في بداية القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي تعيش في مجتمعات عائلية صغيرة، تعتمد في حياتها على الزراعة البدائية وصيد الأسماك والتجارة الموسمية (Lunde, 2002, p.33-34).

وقد اعتمدت على نظام حكم قبلي صارم يستند إلى الأسرة الممتدة المسماة "الكلان"، وهي عبارة عن وحدة اجتماعية تضم أجيالًا عديدة تعيش تحت سقف واحد أو في قرية صغيرة مرتبطة بروابط الدم والزواج (Jones, 1986, p. 46).

سكنت هذه المجتمعات منازل خشبية طويلة شيدت من جذوع الصنوبر وشجر البلوط، وجدران طينية، وسقوف من قش، تحتوي على ممر طويل يضم ما بين العشرين والثلاثين فرداً من الأسرة الواحدة (Sawyer, 1971, pp.50-54).

وامتلكت هذه الأسر الأرض بشكل جماعي في نظام يعرف "بالإرث الجماعي"، حيث يتوارث الأبناء الأرض بالمساواة بين الذكور والإناث، مما يضمن بقاء العائلة موحدة (Sawyer, 1994, pp.42-45). ويرأس الكلان رئيس يدعى بوندي أو غودي، وهو الذي يتولى فض النزاعات بين الأسر، ويوزع إنتاج الأرض بالتساوي عليهم ويحميها من الغزو الخارجي، والولاء للعائلة في هذه المجتمعات يفوق الولاء للدولة (Logan, 1992, p.67).

وكانت المشاكل منتشرة في هذه المجتمعات والأسر، والثارات الدموية لا تتوقف، وتحل عبر مجلس القبيلة المسمى "الثينغ"، الذي يعقد مرة واحدة في الشهر في الهواء الطلق، وتحت شجرة البلوط المقدسة، بثلاثين إلى خمسين رجلاً حراً، ويصدر الثينغ قراراته بالتفاهم لا بالتصويت، ويعد امتناع عضو عن الحكم جريمة، وتعتبر قرارات الثينغ ملزمة للمتخاصمين (Roesdahl , 1998, pp.112-113). وفي هذه المجتمعات البدائية الصعبة وزعت أعباء الحياة بين الرجال والنساء، فبينما كان الرجال يعملون في الصيد وصناعة السفن والسلاح، كانت النساء يزرعن وينسجن ويخبزن ويمارسن الطب بالأعشاب (Foote & Wilson, 1970, p. 132-133 & Somerville & McDonald, 2013, pp.34-40).

ومع هذه البدائية، ف قد تمتعت النساء في هذه المجتمعات بحقوق نسبية مقارنة بنساء أوروبا في العصور الوسطى، إذ كن ينزلن البحر للصيد، ويقدن السفن التجارية، ويرثن كامل الممتلكات، ويطلقن أزواجهن أمام الثينغ، ويدفعن الفدية (Lunde, 2005, p.112 & Foote, 1970, pp.130-132).

وكان النورمانديون وثنيين يعبدون آلهة مثل أودين رب الحرب والحكمة، وثور حامي المحاصيل، مع طقوس أخرى كذبح الخيل في الأفراح وحرق السفن مع القبطان المتوفى (Price, 2002, pp.55-62). وفي بداية القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي، كان اقتصاد النورماند يعتمد على تجارة محدودة بالفراء والعاج والعبيد مع البيزنطيين والعباسيين (Sawyer, 1974, p.89).

ولم يكن النورمانديون غزاة بالخلقة والتكوين، لكن ضيق الرقعة الجغرافية التي كانوا يعيشون فيها، والزيادة المطردة في عددهم، وقسوة المناخ وضنك العيش دفعهم لركوب البحر، خاصة أنهم، كما يؤكد ابن الخطيب (1424هـ/2002م، ج2، ص20-21)

أهل قوة وبأس شديد. استغل النورماند هذه القوة والمهارة في ركوب البحر في الإغارة على الدول المجاورة لهم ونهبها، مستفيدين من براعتهم في صناعة السفن السريعة والخفيفة، والتي عملوا على تطوير قوة دفعها وحمولتها لتصل إلى أربعين مقاتلاً، مما سمح لهم بالقيام بالغارات الخاطفة على سواحل أوروبا البعيدة عن الموانئ الرئيسية المراقبة (Graham, et al, 1980, p.112).

ثانياً: النورماند يغزو أوروبا

بدأت الغارات الموثقة للنورماند على أوروبا في عام 176هج/793م، باستهداف دير في شمال إنجلترا بمائة محارب ونهب الكنوز الذهبية والفضية الموجودة فيه (Thorpe. 1861. pp. 20-22).

وفي عام 214هج/830م احتل النورماند مدينة دبلن في أيرلندا، ونهبوا الأديرة، وأخذوا الرهبان سبايا وباعوهم في أسواق العبيد (Grat, et l., 1964, p.27 & Christiansen, 2002, p 30).

وشهد عام 223هج/838م استهداف النورماند لشمال فرنسا واحتلال مدينة أميين، وإحراق محيطها، ونهب كنائسها، وأسر آلاف الرهبان. وفي نفس العام غزوا مصب نهري اللورد والجارون في سواحل فرنسا، وأقاموا قواعدهم هناك (Jones, 1986, pp.40-41 & MacCarthy, 1893, p.430).

وفي عام 228هج/843م هاجم النورماند مملكة جليقية المسيحية في شمال الأندلس، لكن ملكها رودمير الأول تصدى لهم بجيش كبير وهزمهم، وأحرق عدداً كبيراً من سفنهم وقواربهم وطاردهم خارج حدود خارج حدود مملكته (عنان، 1417هج/1997م، ج1، ص262).

هذه الهزيمة جعلت النورماند يحولون وجهتهم إلى سواحل الأندلس الإسلامية لمطلة على المحيط الأطلسي، وغزوها في عهد رابع أمرائها عبد الرحمن الأوسط أو الثاني **(206-238هج/822-852م)**.

المبحث التالي يعرض تفاصيل هذا الغزو، موضحًا الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للمدن التي استهدفها الغزاة، وكيفية التصدي لهم في كل مدينة، ومبيناً حجم الأضرار الناتجة عن هذا الغزو، وكيف وظف الأمير عبد الرحمن الأوسط هذا الحادث في تطوير استراتيجية الدفاع البري والاهتمام بالبحرية الأندلسية.

المبحث الثاني: الغزو النورماندي لمدن غرب الأندلس

أولاً. غزو الاشبونة

بدأ الغزو النورماندي للأندلس وفقًا لابن حيان (1424هج/2003م، ج2، ص451).

في يوم الأربعاء غرة ذي الحجة من آخر عام 229هج/844م، عندما شوهدت مراكبهم ترسو على سواحل الأشبونة الواقعة على المحيط الأطلسي عند مصب نهر التاجو، والذي حسب الحميري (1408هج/1988م، ص16)، أطول أنهار الأندلس، ويمر في وسط الأشبونة من الشرق، ويتدفق مباشرة إلى المحيط. الأمر الذي سهل وصول سفن الغزاة القادمة من الشمال إلى وسط المدينة بدون عوائق طبيعية تُذكر. وكانت الأشبونة حسب وصف مؤلف مجهول (1983م، ج1، ص51).

من أبرز قواعد الأندلس الحيوية، إذ يطل سورها مباشرة على البحر، وقصبتها محكمة البنيان، وأسواقها عامرة بالبضائع، وأرزاقها كثيرة، وخيراتها واسعة، وثمارها وفيرة، وفواكهها مميزة، وصيدها غزير، وتحيط بها جبال كثيرة وحصون منيعة، وقرى كثيرة متصلة بها، مشهورة بإنتاج عسل لذيذ المذاق يحمله التجار في الثياب والقراطيس لشدة نضارته وعدم جريانه، ناهيك عن كونها مركزاً تجارياً هاماً يربط بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. ولم تكن المدينة محاطة بسور يحميها، ولم يكن لها أسطول يجوب شواطئها، بل كانت تعتمد في حمايتها على أبراج المراقبة النهرية البدائية (Christys, 2013, p.81). استغل النورماند ضعف تحصين الأشبونة وهاجموا سواحلها فجأة بأسطول بحري مكون من أربعة وخمسين سفينة وأربعة وخمسين قارباً (ابن حيان، 1424هج/2003م، ج2، ص451، وابن عذاري، 1434هج/2013م، ج2، ص101)، وعلى متنها بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف مقاتل، نزلوا على الشواطئ الرملية غير المحصنة في الربض الغربي (Christys, 2013, p.82).

سارع عامل الأشبونة، وهب الله بن حزم، إلى مواجهتهم بقوات محلية محدودة مدعومة بالأهالي، وأرسل في الوقت ذاته إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط في قرطبة يصف الهجوم ويطلب النجدة العاجلة. على الفور خاطب الأمير عمال الثغور بأخذ الحيطة والحذر، وحشد الناس لجهاد النورماند (ابن عذاري، نفس المصدر ونفس الصفحة)، لكن بعد المسافة حال دون وصول المدد في الوقت المناسب لإغاثة هذه المدينة المنكوبة. ورغم المقاومة الشرسة التي أبدتها حامية المدينة وأهلها خلال

الأيام الثلاثة الأولى، فقد نجح النورمانديون في اليوم الثالث من اجتياح الأشبونة وأسواقها وأحيائها، ونهبوا أموال السكان وممتلكاتهم (ابن حيان، 1424هج/2003م، ج2، ص451).

ولم يكتف النورماند بذلك، بل أقاموا معسكرهم داخل الجامع الكبير وساحة السوق الرئيسية لثلاثة عشر يوماً (Allen, 2012, pp. 61–62)، خاضوا خلالها ثلاث معارك كبرى مع سكانها المسلمين قبل أن يرحلوا عنها إلى قادس، حسب رواية ابن حيان (1424هج/2003م، ج2، ص451).

أسفر الغزو عن نهب وتدمير الأشبونة، وقتل عدد كبير من رجالها، وسبي نسائها واطفالها، مما يؤكد أن هدف الغزاة كان مادياً واقتصادياً، ولم يكن لغرض الاحتلال الدائم، حيث كان النورماند عقب كل غزوة يتقاسمون الغنائم ويبيعون السبي في أسواق الرقيق التي كانت سمة تلك الفترة من الزمن.

ثانياً: غزو قادس

وفقاً لوصف الحميري (1408هج/1988م، ص 448–449)، كانت قادس، عندما حل النورماند بشواطئها، مدينة عريقة على الساحل الجنوبي الغربي للأندلس، وهي عبارة عن جزيرة طويلة وضيقة تمتد إلى خليج قادس عند مدخل المحيط الأطلسي. فضلاً عن كونها جسراً تجاراً هاماً يربط الأندلس بالبحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وكانت جميع جهاتها مفتوحة على البحر، الأمر الذي استغله النورماند فنزلوا مينائها ونهبوا ثرواتها الزراعية والحيوانية والتجارية الهائلة، ثم غادروها إلى شذونة (العذري، 1973، ص98، وابن عذاري، 1434هج/2013م، ج2، ص101).

ولم توثق المصادر تدميراً جزئياً أو شاملاً لهذه المدينة، ما عدا الخسائر البالغة التي لحقت بثروتها الحيوانية والزراعية والتجارية التي نهبت، كما لم توثق مقاومة من أهلها لهذا الغزو، مما يؤكد أن الغارة كانت سريعة واستهدفت المواشي والإنتاج الزراعي والبضائع التي كانت في الأسواق.

ثالثاً. غزو شذونة

شذونة مدينة جليلة تقع إلى الشمال من جزيرة قادس داخل البر، على هضبة مرتفعة تدعى سادونة، محاطة بسهول خصبة غنية بالموارد الغابية والثروة الحيوانية والسمكية الوفيرة. نزلها جند فلسطين من العرب بعد الفتح الإسلامي في عام 92هج/711م، وبسبب خيرات البر والبحر التي فيها، كانت ملاذًا لجميع أهل الأندلس في سنين القحط والشدة (أبن الكردبوس، 1971، ص 135–136، والحميري، 1408هج/1988م، ص339).

استهدف النورماند هذه المدينة طمعاً في ثرواتها، ودمروا أريافها الخصيبة ونهبوا وثرواتها، وتصدى لهم سكانها المسلمون في معركة كبيرة، لكنهم هزموا، واستولى النورماند على مراكبهم وأموالهم، وغادروا باتجاه إشبيلية (Nick, 2013, p.81). ما يؤكد ما ذكر أعلاه أن النورماند لا يغزون للاحتلال، وإنما لنهب ما يسد رمقهم.

رابعاً: غزو إشبيلية

كانت إشبيلية، عندما غزاها النورماند، من أعظم مدن الأندلس، ودار ملك القوط منذ زمن بعيد. نزلها جند حمص بعد الفتح الإسلامي، وكانت أسواقها عامرة، وخلقها كثير، وأهلها أغنياء، وجل تجارتهم الزيت، يصدرونه للمشرق والمغرب براً وبحراً، ويجمعون الزيت من "الشرف"، وهي منطقة ريفية خصبة تمتد بين إشبيلية شرقاً ولبلة غربًا، طولها أربعون ميلاً وعرضها عشرة أميال، مزروعة بأشجار الزيتون والتين الكثيفة، وتضم أكثر من ثمانية آلاف قرية مزدهرة، عامرة بالحياة والإنتاج (الحميري، 1408هج/1988م، ص59، وابن الكردبوس (1971، .138-139).

وحسب العذري (1973، ص99)، فإن غزو النورماند لإشبيلية بدأ باحتلال جزيرة القبطيل التابعة لهذه المدينة في يوم الجمعة الثامن من محرم عام 230هج/844م، وبقيت سفنهم راسية فيها ثلاثة أيام كاملة تستطلع المكان، وفي اليوم الرابع دخلوا قرية قورة الريفية، والتي تبعد عن إشبيلية اثني عشر ميلاً، حيث تصدى لهم سكانها المسلمون بقوة وشجاعة، لكنهم هزموا، وقتل منهم عدد كبير، وسيطر النورماند على قورة حتى نهاية ذلك اليوم. وفي اليوم التالي غادروها إلى طلياطة، وهي من مدن إشبيلية وتبعد عنها عشرين ميلاً، قضوا فيها ليلتهم، وفي اليوم التالي ظهروا في منطقة ريفية تدعى الفخارين، حيث أجبرهم هجوم أهلها المسلمين على الهروب عبر نهر الوادي الكبير، حتى نزلوا وسط إشبيلية يوم الأربعاء الرابع عشر من محرم (العذري، نفس المصدر، ص100).

وكغيرها من مدن حواضر الساحل الغربي، كانت إشبيلية مكشوفة، ولا وجود لأية تحصينات أو حماية حولها، وبالتالي لم يجد النورمانديون صعوبة في دخولها وارتكاب أبشع المجازر التي عرفتها الإنسانية في سكانها (Nick, 2013, p.83). كان القتل والسبي في المسلمين لا يعد ولا يوصف، فلم ترحم سيوف النورمانديين كل ذي روح من الرجال والنساء والأطفال والدواب والأنعام والطيور، ولم يستطع أحد من غرب الأندلس قتالهم. فر الناس مذعورين من أيديهم إلى مدينة قرمونة الواقعة إلى الشرق

من إشبيلية، وإلى الجبال، وخلت المدينة من سكانها، وأقام النورماند بقية يومهم وليلتهم فيها، ثم عادوا إلى مراكبهم يوم الخميس، محملين بالغنائم والسبي (ابن حيان، 1424هج/2003م، ج2، ص.451، والعذري، 1973م، ص.99، وابن القوطية، 1410هج/1989م، ص.78-79).

استنفر الناس بقرطبة وما جاورها من الأقاليم لجهاد النورماند، وخرج الوزراء بالمستنفرين حتى وصلوا قرمونة، ولكنهم عجزوا عن مقاومة الغزاة لشراستهم وقسوتهم وشدتهم (ابن القوطية، نفس المصدر، ص79، وبروفنسال، 2000، ص185). في هذه الأثناء، وصلت التعزيزات التي أرسلها أمير قرطبة عبد الرحمن الأوسط، على رأسها أشهر قواده، أمثال عبد الله بن المنذر، وعيسى بن شهيد، والاسكندراني، وعبد الرحمن بن كليب بن ثعلبة، ونزلوا شرق إشبيلية، وأحس بهم النورماند فشنوا عليهم هجوماً مباغتاً، لكنهم صمدوا أمامه وقتلوا أكثر من سبعين من الغزاة، وفر الباقون إلى مراكبهم.

وتوقف القواد عن مطاردتهم خوفًا من المخاطر، فلما بلغ الأمير عبد الرحمن خبرهم، عززهم بإرسال محمد بن سعيد بن رستم، الذي جاء في حشد عظيم من الأجناد والجيش حتى وصل إشبيلية، فخرج النورمانديون لمواجهته في وسط المدينة، وتصدى لهم وقاتلهم طوال اليوم. ومع حلول الظلام، سحب جنوده متجنبين مخاطر الليل إلى كورنيش على بعد أربعة أميال قبلي إشبيلية، وهاجمهم، فلم يخرجوا إليه، واعتصموا بجزيرة طلياطة، فاتبعهم ابن رستم وأخذ يقذفهم بالمجانيق (العذري، 1973، ص100). وبينما المعركة قائمة، قدم نصر الخصي، فتى الأمير عبد الرحمن المدلل، بالمدد من قرطبة، وقام بدور فعال في تحريض الناس على قتال النورماند من كل جهة، فاشتبكوا معهم، وكادت الهزيمة أن تحل بالمسلمين، لكن ترجل ابن رستم من على فرسه، والناس من حوله، وإدخال رجاله بين العدو والنهر ساهم في منع النورماند من الوصول إلى مراكبهم، فانهزموا، وأصيبت أربعة من سفنهم، فأمر ابن رستم بحرقها وبيع ما فيها من الفيء، وقتل منهم في هذا اليوم حوالي خمسمائة (العذري، 1973، ص100، ودوزي، 1994م، ج2، ص200-201).

توجه النورماند بعد ذلك إلى قرية قنب قريش، عشرين ميلاً عن إشبيلية، حيث فرغوا سفنهم من الأسرى والغنائم لتقسيمها بين المقاتلين، فاستغل المسلمون انشغالهم بهذه العملية وشنوا عليهم هجوماً مفاجئاً أسفر عن قتل عدد كبير منهم، فعاد النورماند إلى جزيرة طلياطة، محاولين التنقل في أوديتها النهرية، لكن قوات المسلمين هاجمتهم ومنعتهم من النزول (العذري، 1973م، ص100).

وفي هذه الأثناء وصل مدد القوات البحرية التي أرسلها الأمير عبد الرحمن، المكونة من خمسة عشر مركباً محملة بالمقاتلين والمؤن، إلى إشبيلية، فازداد الضغط على النورماند من البر والبحر، وخاض معهم المسلمون معارك متعددة، وقتلوا خلقاً كثيراً منهم. وفي يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر عام 230هج/844م، دارت المعركة الفاصلة بين المسلمين والنورماند في جزيرة طلياطة، وبعد قتال عنيف هزموا، وأحرقت ثلاثون مركباً من مراكبهم، وقتل أكثر من ألف منهم، وأسير أكثر من أربعمائة، وصلب وعلق قتلاهم على جذوع النخل، حسبما سجل عدد من المؤرخين (ابن حيان، 1424هج/2003م، ج2، ص452، وابن عذاري، 1434هج/2013م، ج2، ص102، وعنان، 1417هج/1997م، ج1، ص263).

وانسحب من بقي حياً منهم إلى سفنهم، وغادروا إلى الجنوب، والمسلمون يطاردونهم. وخلال تراجعهم، هاجموا مدن لبة وباجة وغيرها من القرى، ونهبوا وسبوا الكثير من المسلمين، ورجعوا إلى الأشبونة، ورحلوا عن الأندلس، وانقطع خبرهم، تاركين أسراهم الذين خيرهم المسلمون بين القتل والإسلام، فاختاروا الإسلام واختلطوا بالمسلمين. ومنهم نشأت الجالية النورماندية في إشبيلية، والتي اشتهرت بتربية الماشية وصناعة أنواع مختلفة من الأجبان والألبان التي كانوا مشهورين بها في وطنهم الأول (العبادي، بدون ت، ص350).

وكانت المدة من دخول الغزاة النورماند لإشبيلية حتى طردهم منها اثنان وأربعون يوماً، أمضاها سكان هذه المدينة المسلمون في ضيق وشدة، واهتزت لمصيبتهم مشاعر المسلمين في مختلف أقاليم الأندلس (ابن حيان، 1424هج/2003م، ج2، ص452، والعذري، 1973م، ص100).

خامساً. أثر الغزو النورماندي على تحصين المدن وتطور البحرية الأندلسية

غادر النورماند الأندلس بعد حملتهم الشرسة، لكن آثار غزوهم النفسية والمادية الموجعة بقيت ماثلة لسنوات طويلة في أذهان سكان المدن الساحلية المتضررة، مثل الأشبونة وقادس وشذونة وإشبيلية وغيرها، وظلت أحداث هذا الغزو تُسرد في روايات الأدب الشعبي الأندلسي، مثل القصص والأشعار الشعبية، لمدة طويلة من الزمن (ابن حيان، 1424هـ/2003م، ج2، ص453، والعبادي، مرجع سابق، ص351).

أما آثاره السياسية، فكانت أعمق بكثير، حيث بين الغزو، بما لا يدع مجالًا للشك، عن انكشاف السواحل الغربية للأندلس وضعف دفاعاتها البحرية أمام التهديدات الخارجية، مما أثار مخاوف عميقة بشأن أمن الثغور. فعلى الرغم من الجهود الرائدة التي بذلها أمراء الأندلس الأوائل، في تأسيس قوة بحرية أولى، من خلال إنشاء دور متخصصة لصناعة السفن في مدن استراتيجية مثل طركونة وطرطوشة والمرية وإشبيلية، مستغلين توافر المواد الأولية اللازمة لذلك كالخشب المتين والحديد والألياف القوية (سالم والعبادي، 1969، ص160؛ الزغلول، 2001، ص196).

إلا أن الغزو النورماندي لشواطئ الأندلس الغربية في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (206–238هـ/822–852م)، كان بمثابة ناقوس خطر أظهر الحاجة العاجلة إلى إنشاء أسطول بحري قوي وتحصينات برية متينة لصد التهديدات عن سواحل الأندلس كافة. ولذلك، وبمجرد الانتهاء من رد العدوان على إشبيلية بنجاح، شرع الأمير عبد الرحمن الأوسط في اتخاذ عدد من الخطوات الاستراتيجية لتطوير الأسطول البحري وحماية الثغور البرية يمكن إجمالها فيما **يلي:**

1- بناء سور مدينة إشبيلية العظيم على يد أحد موالي الأمويين المشهورين بالبناء وهو عبد الله بن سنان، والذي كان حسب ابن القوطية (1410هـ/1989م، ص81)، من خاصة الأمير عبد الرحمن، ومازال اسمه منحوتاً على هذا السور.

2- إنشاء دار لصناعة السفن الحربية الكبيرة في ميناء إشبيلية.

3- إنشاء دار لصناعة السفن في قرمونة، والتي تبعد عن إشبيلية حوالي عشرين ميلاً.

4- تزويد إشبيلية بالبحارة المتدربين على خوض العمليات البحرية.

5- الاستعداد لمواجهة أي خطر في المستقبل، بتدريب رجال البحرية والأسطول، والتوسع في أرزاقهم.

6- تجنيد البحارة من أبناء الثغور العربية على شواطئ الأندلس.

7- توفير الأدوات اللازمة لصد العدو مثل قوارير النفط والآليات التي تقذف السفن المعتدية والغزاة.

8- الاهتمام ببناء المحارس أو الرباطات الدائمة على طول الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلسي، وكانت الحراسة في الرباطات تتم من مراصد عالية مرفقة بها، مما مكن الجنود المرابطين من كشف التهديدات قبل ان تقترب من السواحل الأندلسية.

9- زودت هذه الرباطات والمراصد بالمناور أو المنارات، فإذا كشف الجنود المرابطون في المراصد خطراً يداهم السواحل الأندلسية ليلاً، أشعلوا النار على قمم المراصد، وإذا كان الخطر نهاراً أثاروا الدخان منها.

10- تم تزويد هذه المحارس بأدوات النفير العام، مثل الطبول وصفارات الإنذار، لتحذير الناس من الأخطار.

11- تعزيز آمن السواحل بالقوات البرية التي أصبحت ترابط على كافة شواطئ الأندلس.

12- تشييد الحصون والمعاقل والقلاع والمراصد على طول السواحل الغربية.

13- الاستعداد الدائم والمستمر لإحباط الهجمات المفاجئة.

14- ترميم ما دمره النورمانديون من بيوت إشبيلية ومسجدها الجامع وغيره من المساجد (أبن حيان، 1424هـ/2003م، ج2، ص456،461، وأبن القوطية، 1410هـ/1989م، ص81-82، وعنان، 1417هـ/1997م، ج1، ص264، والعبادي، بدون ت، ص350).

وهكذا حول الأمير عبد الرحمن الأوسط هذا العدوان إلى دافع لإصلاح البحرية الأندلسية، التي شهدت تطوراً كبيراً بعد هذا الغزو، فتقدمت صناعة السفن والمراكب وتطور الأسطول البحري الأندلسي بشكل كبير يوضح هذا التطور حجم الأسطول الذي جهزه الأمير لفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة في جزر البليار شرقي الأندلس عام 234هـ/848م، والذي كان قوامه ثلاثمائة سفينة (الزغلول، 2001، ص196).

النتائج:

تبين نتائج دراسة الغزو النورماندي الأول لشواطئ الأندلس الغربية عام 230هـ/844م، ما يلي:

1- قدم البحث تفاصيل جديدة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية المبكرة للنورمانديين، مما يسهم في إثراء حقل الدراسات الأندلسية في العصور الوسطى.

2- وضح البحث كيف أسهمت قسوة المناخ ومحدودية الموارد في تشكيل جماعات الغزاة.

3- كشف الغزو عن ضعف الدفاعات البرية والبحرية في المدن التي غزاها النورمانديون.

4- أكد البحث استغلال الغزاة للمناطق ضعيفة التحصين، واستخدام عامل المباغتة.

5- شدد البحث على أن النورمانديين لم يغزو بهدف الاستعمار، بل من للحصول على الغذاء والملابس.

6- أوضح البحث كيف أسهم الغزو في تسريع إنشاء دور لصناعة السفن في كلاً من إشبيلية وقرمونة، وتدريب البحارة المتخصصين.

7- بين البحث قيام نظام دفاع ساحلي متكامل، يشمل رباطات ومراصد مزودة بوسائل إنذار كالنار والدخان والطبول، إلى جانب وحصون وأبراج مراقبة على طول سواحل الأندلس المطلة على الأطلسي.

8- اظهر البحث قدرة الأمير عبد الرحمن الأوسط في تحويل الكوارث إلى فرص لتطوير استراتيجيات الدفاع البري والبحري في إمارته.

التوصيات: يوصي البحث بالآتي:

1- القيام بدراسة مقارنة بين الغزو النورماندي للأندلس وغزواتهم لأوروبا الغربية للكشف عن أوجه التشابه والاختلاف في التكتيكات العسكرية والاستراتيجيات التي اعتمدها النورماند.

2- التوسع في تحليل العوامل المناخية والبيئية في شمال أوروبا، وربطها بشكل أعمق بتحركات النورماند البحرية واختيارهم للأهداف.

3- القيام بدراسة تحليلية لدور الاستخبارات والمعلومات في نجاح الغارات النورماندية.

4- إجراء دراسة تحليلية للبعد الاقتصادي للغزوات النورماندية في الأندلس.

5- إجراء دراسة متخصصة حول الخسائر الاقتصادية الحقيقية التي تكبدتها المدن الأندلسية، وتأثير ذلك على التجارة البحرية والزراعة في المدى المتوسط والبعيد.

6- القيام بدراسة حول أثر اندماج الأسرى النورمانديين في المجتمع الأندلسي، وكيف ساهموا في تشكيل بعض الأنشطة الاقتصادية أو الثقافية لاحقًا.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً. المصادر والمراجع العربية

1-ابن عذاري، أبي العباس أحمد بن محمد (ت 712هـ). (2013م/1434هـ). *المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب* (ج2). تحقيق: بشارة عواد معروف ومحمود بشارة عواد. الطبعة الأولى. دار الغرب الإسلامي، تونس.

2-ابن الخطيب، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي (ت 776هـ). (2002م/1424هـ). *أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام* (ج2). تحقيق: سيد كسروي حسن. الطبعة الأولى. دار الكتب العلمية، بيروت.

3-ابن حيان، القرطبي. (2003م/1424هـ). *المقتبس* (السفر 2). تحقيق: محمود علي مكي. الطبعة الأولى.

4-ابن القوطية (ت 367هـ/977م). (1989م/1410هـ). *تاريخ افتتاح الأندلس*. تحقيق: إبراهيم الإبياري. الطبعة الثانية. دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني.

5-ابن الكردبوس. (1971م). *تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط*. تحقيق: أحمد مختار العبادي. معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.

6-الأهواني، عبد العزيز (محقق). (1973م). *ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك والممالك*، لأحمد بن عمر بن أنس العذري. معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.

7-الحميري، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم. (1988م/1408هـ). *صفة جزيرة الأندلس: منتخب من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار*. تحقيق: أ. ليفي بروفنسال. الطبعة الثانية. دار الجيل، بيروت.

8-العبادي، أحمد مختار. (د.ت). *في التاريخ العباسي والأندلسي*. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

9-العذري، أحمد بن عمر بن أنس (المعروف بابن الدلائي). (1973م). *ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك والممالك*. تحقيق: عبد العزيز الأهواني. معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.

10-عنان، محمد عبد الله. (1997م/1417هـ). *دولة الإسلام في الأندلس*: العصر الأول (القسم الثاني، ط4، ج1). مكتبة الخانجي.

11- بروفنسال، ليفي. (2000م). *تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (711-1031م)*. ترجمة: علي عبد الرؤوف البمبي وآخرون. مراجعة: صلاح فاضل. الطبعة الثالثة. المجلس الأعلى للثقافة.

12- دوزي، رينهرت. (1994م). *المسلمون في الأندلس*. ترجمة: حسن حبشي. الهيئة المصرية العامة للكتاب (ج2).

13- سالم، السيد عبد العزيز، والعبادي، أحمد مختار. (1969م). *تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس* (ج2). دار النهضة العربية، بيروت.

14- الزغلول، جهاد غالب مصطفى. (2001م). *الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح حتى سقوط غرناطة (92-897هـ/711-1492م)*. رسالة ماجستير منشورة، إربد، الأردن.

15- مؤلف مجهول. (1983م). *ذكر بلاد الأندلس* (ج1). تحقيق وترجمة: لويس مولينا. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد.

ثانياً. المراجع الأجنبية

16-Allen, R. (2012). *The Norman invasion of the new world*. McGill-Queen's University Press.

17-Christiansen, E. (2002). *The Norsemen in the Viking Age*. Blackwell

18-Christys, A. (2013). *Vikings in the south*: Voyages to Iberia and the Mediterranean. Bloomsbury Publishing.

19-Foote, P. G., & Wilson, D. M. (1970). *The Viking achievement.* Sidgwick & -Jackson.

20-Graham-Campbell, J. (1980). *The Viking world.* Frances Lincoln Publishers.-

21-Grat, F., Vielliard, J., & Clémencet, S. (Eds.). (1964). *Les Annales de Saint-Bertin*. Klincksieck.

22-Jones, G. (1986). *A history of the Vikings*. Oxford University Pres.

22-Logan, F. D. (1992). *The Vikings in history*. Routledge

23-Lunde, N. (2002). *Viking raiders*. Wiley-Blackwell

24- Lunde, P. (2005). *The Vikings: Life and legend.* British Museum Press.

25-MacCarthy, B. (Ed.). (1893). *Annala Uladh: Annals of Ulster; otherwise, Annala Senait*: A chronicle of Irish affairs from A.D. 431 to A.D. 1540 (Vol. 1). Royal Irish Academy.

26-Nick, H. (2013). *The Viking Age and Muslim-Christian frontiers in medieval Iberia.*

27-Price, N. S. (2002). *The Viking way*. Aarhus University Press.

28-Roesdahl, E. (1998). *The Vikings* (Rev. ed.). Penguin Books

29-Sawyer, P. H. (1971). *The age of the Vikings*. Edward Arnold

30-Sawyer, P. H. (1994). *Kings and Vikings*. Methuen Publishing

31-Somerville, R., & McDonald, A. (Eds.). (2013). *The Viking Age*: A reader - (2nd ed.). University of Toronto Press.

32-Thorpe, B. (Ed.). (1861). *The Anglo-Saxon Chronicle: According to the several original authorities* (Vol. 2). Longman, Green, Longman, and Roberts.